قبحٌ جميلٌ(١)

دخل أحمدُ بن أيمن (كاتب ابن طولون) البصرة ، فصنع له مسلمُ بن عمران التَّاجرُ المتأدِّبُ صنيعاً ، دعا إليه جماعةً من وجوه التُّجار ، وأعيان الأدباء ، فجاء ابنا صاحب الدَّعوة ، وهما غلامان ، فوقفا بين يَدي أبيهما ، وجعل ابنُ أيمن يُطيل النَّظرَ إليهما ، ويُعْجَبُ من حسنهما ، وَبزَّتهما ، ورُوائهما(٢) ، حتَّى كأنَّما أفْرغا في الجمال وزينتِه إفراغاً ، أو كأنَّما جاءا من شمسٍ ، وقمرٍ لا من أبوين من النَّاس ، أو هما قد نبتا في مثل تَهاويل(٣) الزَّهر من زينته ؛ التي تُبدِعها الشَّمس ، ويَصْقِلها الفجر ، ويتندَّى بها رُوحُ الماءِ العذب ؛ وكان لا يصرف نظرَه عنهما إلا رجع به النَّظر ، كأنَّ جمالهما لا ينتهي ، فما ينتهي الإعجابُ به .

وجعل أبوها يُسارِقه النَّظرَ مُسارقةً ، ويبدو كالمتشاغل عنه ، لِيَدَع له أن يتوَسَّمَ ، ويتأمَّل ما شاء ، وأن يملأ عينيه ممَّا أعجبه من لؤلؤتَيه ، ومخايلهما ؛ بَيْدَ أنَّ الحُسنَ الفاتنَ يأبى دائماً إلا أن يسمعَ من ناظره كلمةَ الإعجاب به ، حتَّى لينطق المرء بهذه الكلمة أحياناً ، وكأنَّها مأخوذةٌ من لسانه أخذاً ، وحتى ليُحسُّ : أنَّ غريزةً في داخله كلَّمَها الحُسنُ من كلامِه ، فردَّت عليه من كلامها .

قال ابن أيمن : سبحان الله ؛ ما رأيتُ كاليوم قطُّ دُمْيَتيْنِ لا تفتح الأعينُ على أجملَ منهما ، ولو نزلا من السَّماء ، وألبستْهما الملائكة ثياباً من الجنة ، ما حسبتُ أن تصنَع الملائكة أظرف ، ولا أحسنَ ممَّا صنعتْ أمُّهما .

فالتفت إليه مسلمٌ ، وقال : أحب أن تعوِّذهما . فمدَّ الرَّجل يدَه ، ومسح عليهما ، وعوَّذهما بالحديث المأثور ، ودعا لهما ، ثمَّ قال : ما أراك إلا استَجدْتَ الأمَّ(٤) ؛ فحسُنَ نسلُك ، وجاء كاللؤلؤ يشبه بعضُه بعضاً ، صِغارُه من كباره ، وما

---

(١) انظر : « عود على بدء » من كتابنا : « حياة الرافعي » . (س) .

(٢) « روائهما » : الرُّواء : المنظر الحَسَن .

(٣) « تهاويل » : جمع تهويل ، وهو ما هالَكَ من شيء . وزينة التصاوير ، والنقوش ، والوشي .

(٤) « استجدت الأم » : اخترتها بشكل جيد .

عليك ألا تكون قد تزوَّجت ابنةَ قيصر ، فأولدتَها هذين ، وأخرجتْهما هي لك في صِيغتها الملوكيَّة[١] من الحسن ، والأدبِ ، والرَّونق ، وما أرى مثلهما يكونان في موضعٍ إلا كان حولهما جلالُ المُلك ، ووقارُه ، ممَّا يكون حولهما من نور تلك الأمّ .

فقال مسلم : وأنت على ذلك غيرُ مصدِّقٍ إذا قلت لك : إنِّي لا أحب المرأة الجميلة الَّتي تصف ، وليس بي هوىً إلا في امرأة دميمةٍ ، هي بدمامتها أحبُّ النساء إليَّ ، وأخفُّهنَّ على قلبي ، وأصلحُهنَّ لي ، ما أعدِلُ بها ابنةَ قيصر ، ولا ابنة كسرَى .

فبقي ابن أيمن كالمشدوه من غرابة ما يسمع ، ثمَّ ذكر : أنَّ من الناس مَن يأكل الطِّين ، ويستطيبه لفسادٍ في طبعه ، فلا يحلو السُّكرُ في فمه وإن كان مكرَّراً خالصَ الحلاوة ، ورَثى أشدَّ الرِّثاء لأم الغلامين أن يكون هذا الرَّجل الجِلفُ قد ضارَّها[٢] بتلك الدَّميمةِ ، أو تَسرَّى بها عليها ، فقال وما يملك نفسه : أما والله ! لقد كفَرتَ النِّعمة ، وغَدرت ، وجحدْتَ ، وبالغت في الضُّرِّ ، وإنَّ أم هذين الغلامين لامرأةٌ فوق النِّساء ؛ إذ لم يتبيَّن في ولديها أثرٌ من تغيُّر طبعها ، وكدُورِ نفسها ، وقد كان يَسعُها العذرُ لو جعلتهما سَخْنةَ عينٍ لك ، وأخرجتْهما للنَّاس في مَساوئك ، لا في محاسِنك ، وما أدري كيف لا تَنِدُّ[٣] عليك ، ولا كيف صَلُحَت بمقدار ما فسدْتَ أنت ، واستقامت بمقدار ما التويتَ ، وعجيبٌ واللهِ شأنُكما ! إنَّها لتغلو في كرم الأصل ، والعقل ، والمروءة ، والخلق ، كما تغلو أنت في البهيميَّة ، والنَّزق ، والغدرِ ، وسوء المكافأة !

قال مسلم : فهو والله ما قلتُ لك ! وما أحبُّ إلا امرأةً دميمةً قد ذهبت بي كلَّ مذهب ، وأنستني كلَّ جميلةٍ في النِّساء ، ولئن أخذتُ أصفُها لك لما جاءت الألفاظ إلا من القُبح ، والشَّوهةِ[٤] ، والدَّمامة ، غير أنَّها مع ذلك لا تجيء إلا دالةً على

---

(١) تجيء هذه الكلمة في كتب الأدب والتاريخ على غير قاعدة النسب ، وهو الأفصحُ في رأينا ، ومن ذلك تسمية الإمام ابن جني كتابه : « التصريف الملوكي » . (ع) .

(٢) « المضارة » : اتخاذ الضُّرة على الزوجة . (ع) .

(٣) « تندّ » : تفرّ ، وتَشْرد .

(٤) « الشوهة » : القُبْحُ .

أجمل معاني المرأة عند رجُلها في الحظوة ، والرِّضا وجمالِ الطبع ، وانظر كيف يلتئم أن تكونَ الزِّيادة في القبح هي زيادةً في الحسن وزيادةً في الحبِّ ، وكيف يكون اللَّفظ الشَّائه ، وما فيه لنفسي إلا المعنى الجميل ، وإلا الحسُّ الصَّادق بهذا المعنى ، وإلا الاهتزازُ ، والطَّرب لهذا الحسِّ ؟

قال ابن أيمن : والله إن أراك إلا شيطاناً من الشَّياطين ، وقد عجَّل الله لك من هذه الدَّميمة زوجتَك الَّتي كانت لك في الجحيم ، لتجتمعا معاً على تعذيب تلك الحوراء الملائكيَّة أُم هذين الصَّغيرين ، وما أدري كيف يتَّصل ما بينكما بعد هذا الذي أدخلتَ من القبح ، والدَّمامة في معاشرتها ، ومُعايشتها ، وبعد أن جعلتَها لا تنظر إليك إلا بنظرتها إلى تلك ، أفبَهِيمةٌ هي لا تعقل ، أم أنت رجلٌ ساحرٌ ، أم فيك ما ليس في النَّاس ، أم أنا لا أفقه شيئاً ؟

فضحك مسلم ، وقال : إنَّ لي خبراً عجيباً . كنت أَنزل « الأبُلَّة » وأنا مُتعَيِّش[١] فحملت منها تجارة إلى البصرة ، فربحت ، ولم أزل أحمل من هذه إلى هذه ، فأربح ، ولا أخسر ، حتَّى كثر مالي ؛ ثمَّ بدا لي أن أتَّسع في الآفاق ؛ البعيدة لأجمع التِّجارة من أَطرافها ، وأبسطَ يدي للمال حيث يكثر ، وحيث يقلُّ ، وكنت في مَيْعة الشَّباب[٢] ، وغلَوَائِه[٣] ، وأول هجْمة الفتوَّة على الدُّنيا ؛ وقلت : إنَّ في ذلك خلالاً : فأرى الأممَ في بلادها ، ومَعايِشها ، وأتقلَّبُ في التِّجارة ، وأجمع المال ، والطَّرائف ، وأُفيدُ عظةً ، وعبرة ، وأعلم عِلماً جديداً ؛ ولعلَّني أصيب الزَّوجةَ الَّتي اشتهيتها ، وأصوِّر لها في نفسي التَّصاوير ، فإنَّ أمري من أوَّله كان إلى عُلُوٍّ ، فلا أريد إلا الغاية ، ولا أرمي إلا للسَّبق ، ولا أرضى أن أتخلَّف في جماعة النَّاس . وكأنِّي لم أر في الأبلَّة ، ولا في البصرة امرأة بتلك التَّصاوير الَّتي في نفسي ، فتأخذها عيني ، فتعجبني ، فتصلُح لي ؛ فأتزوج بها ؛ وطمعت أن أستنزل نجماً من تلك الآفاق أحْرزه في داري ؛ فما زلت أرمي من بلدٍ إلى بلدٍ حتَّى دخلت « بلخ »[٤] من أجلِّ مدُن خُراسان وأوسعها غَلَّةً ، تحمَلُ غَلَّتها إلى جميع خراسان ،

---

(١) أي : متكسِّب ليعيش لا ليغتني ، وهذا يُسمِّيه العامة : (المتسبِّب) . (ع) .
(٢) « ميعة الشباب » : أوَّله .
(٣) « غلوائه » : حدّته .
(٤) موقعها اليوم في بلاد الأفغان . (ع) .

وإلى خُوارَزْم ؛ وفيها يومئذٍ : كان عالمُها ، وإمامُها « أبو عبد الله البَلْخي » وكنّا نعرف اسمه في البصرة ؛ إذ كان قد نزلها في رحلته ، وأكثر الكتابة بها عن الرُّواة ، والعلماء ، فاستَخَفَّتْني إليه نزيَّةٌ من شوقي إلى الوطن ، كأنَّ فيه بلدي ، وأهلي ، فذهبت إلى حلْقته ، وسمعتُه يفسِّر قول النَّبي ﷺ : « سوداءُ ولودٌ خيرٌ من حسناءَ لا تلد[1] » . فما كان الشَّيخ إلا في سحابةٍ ، وما كان كلامه إلا وَحياً يوحى إليه ، سمعت والله كلاماً لا عهد لي بمثله ، وأنا من أوَّل نشأتي أجلس إلى العلماء والأدباء ؛ وأُداخِلُهم في فنونٍ من المذاكرة ، فما سمعت ، ولا قرأت مثل كلام البَلْخِيِّ ، ولقد حفظتُه حتى ما تفوتُني لفظةٌ منه ، وبقي هذا الكلام يعمل في نفسي عمله ، ويدفعني إلى معانيه دفعاً ؛ حتَّى أتى عليَّ ما سأحدِّثك به . إنَّ الكلمة في الذِّهن لتوجِدُ الحادثة في الدُّنيا .

قال ابن أَيمن : اطْوِ خبرك إن شئت ، ولكن أذكر لي كلام البلْخِيِّ ، فقد تعلَّقتْ به نفسي .

قال : سمعت أبا عبد الله يقول في تأويل ذلك الحديث : أمَّا في لفظ الحديث فهو من معجزات بلاغة نبيِّنا ﷺ ، وهو من أعجب الأدب وأبرعِه ، ما علمت أحداً تنبَّه إليه ، فإنَّه ﷺ لا يريد السَّوداءَ بخصوصها ، ولكنَّه كَنَّى بها عمَّا تحت السَّواد ، وما فوق السَّواد ، وما هو إلى السَّواد ، من الصِّفات الَّتي يتقبَّحُها الرِّجال في خِلقة النِّساء ، وصُوَرِهِنَّ ؛ فألطف التعبير ، ورَقَّ به ، رفعاً لشأن النِّساء أن يصف امرأة منهنَّ بالقبح والدَّمامة ، وتنزيهاً لهذا الجنس الكريم ، وتنزيهاً للسانه النَّبويِّ ، كأنَّه ﷺ يقول : **إنَّ ذِكْرَ قبح المرأة هو في نفسه قبيحٌ في الأدب ، فإنَّ المرأة أمٌّ ، أو في سبيل الأمومة ؛ والجنَّة تحت أقدام الأمَّهات ، فكيف تكون الجنَّة التي هي أحسن ما يُتخَيَّل في الحسن تحت قدمي امرأةٍ ، ثمَّ يجوز أدباً ، أو عقلًا أن توصف هذه المرأة بالقبح .**

أما إنَّ الحديث كالنَّصِّ على أنَّ من كمال أدب الرَّجل إذا كان رجلاً ألا يصف امرأة بقبح الصُّورة ألبتَّة ، وألا يجريَ في لسانه لفظ القبح ، وما في معناه ، موصوفاً

---

(١) رواه ابن حبان في كتاب المجروحين (٢/ ١١١) وقال : هذا حديث منكر لا أصل له . وانظره في كشف الخفاء برقم (١٤٩٩) .

به هذا الجنسُ الَّذي منه أُمه : أيودُّ أحدُكم أن يمزِّق وجه أمِّه بهذه الكلمة الجارحة ؟

وقد كان العربُ يُفصِّلون لمعاني الدَّمامة في النساء ألفاظاً كثيرةً ؛ إذ كانوا لا يرفعون المرأة عن السَّائمة[١] ، والماشية ، أمَّا أكمل الخلْق ﷺ ، فما زال يوصي بالنِّساء ، ويرفع شأنهنَّ ، حتَّى كان آخرُ ما وصَّى به ثلاث كلمات ، كان يتكلَّم بهنَّ إلى أن تلجْلجَ لسانه[٢] ، وخفيَ كلامه ، جعل يقول : « الصَّلاة . . . الصَّلاة ، وما ملكت أيمانكم ، لا تكلِّفوهم ما لا يطيقون ، اللهَ اللهَ في النساء ! »[٣] .

(قال الشَّيخ) : كأنَّ المرأةَ من حيث هي إنَّما هي صلاةٌ تتعبَّد بها الفضائلُ ، فوجبتْ رعايتها ، وتلقِّيها بحقِّها ، وقد ذكرها بعد الرَّقيق ؛ لأنَّ الزواج بطبيعته نوع رِقٍّ ، ولكنَّه ختمَ بها ، وقد بدأ بالصَّلاة ؛ لأنَّ الزَّواج في حقيقته نوعُ عبادة .

(قال الشيخ) : ولو أنَّ أمّاً كانت دميمةً شوهاءَ[٤] في أعين الناس ؛ لكانت مع ذلك في عين أطفالها أجمل من مِلِكةٍ على عرشها ، ففي الدُّنيا من يصفها بالجمال صادقاً في حسِّهِ ، ولفظِه ، لم يكذب في أحدهما ، فقد انتفى القبح إذاً ، وصار وصفها به في رأي العين تكذيباً لوصفها في رأي النَّفس ، ولا أقلَّ من أن يكون الوصفان قد تعارَضا ، فلا جمال ، ولا دمامة .

قال الشَّيخ : وأمَّا في معنى الحديث ، فهو ﷺ يقرِّر للنَّاس أنَّ كرمَ المرأة بأمومتها . فإذا قيل : إنَّ في صورتها قبحاً ، فالحسناء التي لا تلد أقبحُ منها في المعنى . وانظر أنت كيف يكون القبح الَّذي يقال : إنَّ الحسن أقبح منه . . . !

فمن أين تناولتَ الحديثَ رأيته دائراً على تقدير أن لا قبحَ في صورة المرأة ، وأنَّها منزهةٌ في لسان المؤمن أن توصف بهذا الوصف ، فإنَّ كلماتِ القبح ، والحسن لغةٌ بهيميَّة تجعل حبَّ المرأة حبّاً على طريقة البهائم ، من حيث تفْضُلها طريقة البهائم بأنَّ الحيوانَ على آحتباسه في غرائزه ، وشهواته ، لا يتكذَّبُ في الغريزة ، ولا في الشَّهوة بتلوينهما ألواناً من خياله ، ووضعِهما مرَّة فوق الحدِّ ،

---

(١) « السائمة » : الإبل أو الماشية تُرسل للرعي ، ولا تُعْلَف .

(٢) « تلجلج لسانه » : ثَقُلَ لسانُه ، وتردَّد في كلامه .

(٣) رواه ابن ماجه (٢٦٢٥) عن أم سلمة .

(٤) شوهاء : قبيحة .

ومرَّةً دون الحدِّ[١] .

فأكبر الشَّأن هو للمرأة الَّتي تجعلُ الإنسان كبيراً في إنسانيته ، لا الَّتي تجعله كبيراً في حيوانيَّته ، فلو كانت هذه الثَّانيةُ هي الَّتي يصطلح النَّاس على وصفها بالجمال ؛ فهي القبيحةُ لا الجميلة ؛ إذ يجب على المؤمن الصَّحيح الإيمان أن يعيشَ فيما يصلُح به النَّاسُ ، لا فيما يصطلح عليه النَّاس ؛ فإنَّ الخروج من الحدود الضَّيقة للألفاظ ، إلى الحقائق الشاملة هو الاستقامةُ على طريقها المؤدِّي إلى نعيم الآخرة ، وثوابها .

وهناك ذاتان لكلِّ مؤمنٍ : إحداهما غائبةٌ عنه ، والأخرى حاضرةٌ فيه ، وهو إنَّما يصل من هذه إلى تلك ، فلا ينبغي أن يَحصر السَّماوية الواسعة في هذه التُّرابيَّة الضَّيِّقة ، والقبحُ إنَّما هو لفظ ترابيٌّ يشار به إلى صورةٍ وقع فيها من التشويه مثلُ معاني التراب ، والصُّورة فانيةٌ زائلةٌ ، ولكن عملها باقٍ ؛ فالنَّظر يجب أن يكون إلى العمل ، فالعملُ هو لا غيره الذي تتعاوَره ألفاظ الحسن ، والقبح .

وبهذا الكمال في النفس ، وهذا الأدب ، قد ينظر الرَّجلُ الفاضل من وجه زوجته الشَّوهاءِ الفاضلة ، لا إلى الشَّوهاء ، ولكن إلى الحور العين . إنَّهما في رأي العين رجلٌ ، وامرأة في صورتين متنافرَتين جمالاً ، وقبحاً ، أمَّا في الحقيقة ، والعمل ، وكمال الإيمان الرُّوحي ؛ فهما إرادتان متَّحدتان تجذُب إحداهما الأخرى جاذبيةَ عشقٍ ، وتلتقيان معاً في النَّفسين الواسعتين ، والمراد بهما الفضيلةُ ، وثوابُ الله ، والإنسانيَّة ، ولذلك اختار الإمامُ أحمدُ بن حنبل عوراءَ على أختها ، وكانت أختها جميلةً ، فسأل : مَن أعقلُهما ؟ فقيل : العوراء . فقال : زوِّجوني إيَّاها . فكانت العوراء في رأي الإمام ، وإرادته هي ذات العينين الكحيلتين ، لوفور عقله وكمال إيمانه .

قال أبو عبد الله : والحديث الشَّريفُ بعد كلِّ هذا الذي حكيناه ، يدلُّ على أنَّ الحبَّ متى كان إنسانياً جارياً على قواعد الإنسانيَّة العامَّة ، متَّسعاً لها ، غيرَ محصورٍ في الخصوص منها ؛ كان بذلك علاجاً من أمراض الخَيال في النَّفس ، واستطاع الإنسان أن يجعل حُبَّه يتناول الأشياء المختلفة ، ويرُدُّ على نفسه من لذَّاتها ، فإن لم

---

(١) بسطنا هذا المعنى في كتابنا (السحاب الأحمر) . (ع) .

يُسعدُه شيءٌ بخصوصه ؛ وجدَ أشياء كثيرةً تسعِدُه بين السَّماء ، والأرض ، وإن وقع في صورة امرأته ما لا يُعدُّ جمالاً ؛ رأى الجمالَ في أشياءَ منها غير الصُّورة ، وتعرَّف إلى ما لا يَخفَى ؛ فظهر له ما يخفى .

وليست العينُ وحدَها هي التي تؤامَرُ في أيِّ الشيئين أجمل ، بل هناك العقل ، والقلب ؛ فجواب العينِ وحدها إنَّما هو ثلثُ الحقِّ ؛ ومتى قيل : « ثلثُ الحقِّ » فضياع الثُّلثين يجعله في الأقل حقّاً غير كامل .

فما نكرهه من وجهٍ ، قد يكون هو الذي نحبُّه من وجهٍ آخر ؛ إذا نحن تركنا الإرادة السليمة تعمل عملَها الإنسانيَّ بالعقل ، والقلب ، وبأوسعِ النَّظرَين دون أضيقهما ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ١٩] .

* * *

فوثب ابن أيمن ، وأقبل يدور في المجلس ممَّا دخله من طَرَبِ الحديث ، ويقول : ما هذا إلا كلام الملائكة سمعناه منك يابن عمران ! قال مسلم : فكيف بك لو سمعتَه من أبي عبد الله ؟! إنَّه واللهِ قد حبَّب إليَّ السَّوداء ، والقبيحة ، والدَّميمة ، ونظرتُ لنفسي بخير النَّظرين ، وقلت : إن تزوَّجْتُ يوماً فما أبالي جمالاً ، ولا قبحاً ، إنَّما أريد إنسانيَّة كاملةً منِّي ، ومنها ومن أولادنا ، والمرأةُ في كلِّ امرأة ، ولكن ليس العقل في كلِّ امرأةٍ .

قال : ثمَّ إنِّي رجعتُ إلى البصرة ، وآثرتُ السُّكنى بها ، وتَعالمَ النَّاس إقبالي ، وعلمتُ : أنَّه لا يَحسُنُ بي المُقامُ بغير زوجةٍ ، ولم يكن بها أجلُّ قدراً من جدِّ هـٰذين الغلامين ، وكانت له بنت قد عَضَلها[1] ، وتَعَرَّض بذلك لعداوة خُطَّابِها ؛ فقلت : ما لهذه البنت بدٌّ من شأن ، ولو لم تكن أكملَ النِّساء وأجملَهنَّ ، ما ضنَّ بها أبوها ؛ رَجاوَةَ أن يأتيه من هو أعلى ، فحدَّثتني نفسي بلقائه فيها ، فجئته على خَلوَةٍ . . .

فقطع عليه ابن أيمن ، وقال : قد علمنا خبرَها من منظر هذين الغلامين ، وإنَّما نريدُ من خبر تلك التي تَعَشَّقْتَها .

---

(١) « عضلها » : عَضَل المرأةَ : مَنَعَها التَزوُّجَ ظلماً .

قال : مهلاً ، فستنتهي القصَّةُ إليها . ثمَّ إنِّي قلت : يا عمِّ ! أنا فلان بن فلان التَّاجر . قال : ما خَفي عنِّي محلُّك ، ومحلُّ أبيك ، فقلت : جئتُك خاطباً لابنتك . قال : والله ما بي عنك رغبةٌ ، ولقد خطبها إليَّ جماعةٌ من وجوه البصرة ، وما أجبتهم ، وإنِّي لكارِهٌ إخراجَها عن حِضْني إلى من يُقوِّمُها تقويمَ العبيد ! فقلت : قد رفعها الله عن هذا الموضع ، وأنا أسألك أن تُدخِلَني في عَدَدِك ، وتَخْلِطني بشَمْلك[1] .

فقال : ولا بدَّ من هذا ؟ قلت : لا بدَّ . قال : اغْدُ عليَّ برجالك .

فانصرفتُ عنه إلى ملأ من التُّجار ذوي أخطارٍ[2] ، فسألتهم الحضورَ في غدٍ ؛ فقالوا : هذا رجلٌ قد ردَّ من هو أثرَى منك ؛ وإنَّك لتُحَرِّكُنا إلى سَعْيٍ ضائعٍ .

قلت : لا بدَّ من ركوبكم معي ، فركبوا على ثِقةٍ من أنَّه سيردُّهم .

فصاح ابن أيمن وقد كادت روحُه تخرج : فذهبت ، فزوَّجَك بالجميلة الرَّائعة أمِّ هذين ؛ فما خبر تلك الدَّميمة ؟

قال مسلم : يا سيدي ! قد صبرتَ إلى الآن ؛ أفلا تصبر على كلمات تُنبِّئك من أين يبدأ خبر الدَّميمة ، فإنِّي ما عرفتها إلا في العُرْس . . . !

قال : وغدوْنا عليه ، فأحسَنَ الإجابة ، وزوَّجني ، وأطعم القوم ، ونحر لهم ، ثمَّ قال : إن شئت أن تبيتَ بأهلك ، فافعل ، فليس لها ما يُحتاج إلى التَّلوُّم عليه ، وانتظاره .

فقلت : هذا يا سيدي ما أحبَّه ! فلم يزل يُحدِّثني بكلِّ حَسنٍ حتَّى كانت المغرب ، فصلاَّها بي ، ثمَّ سبَّح ، وسبَّحتُ ، ودعا ، ودعوتُ ! وبقي مقبلاً على دعائه ، وتسبيحه ما يلتفت لغير ذلك ، فأمَضَّني[3] ـ علم اللهُ ـ كأنَّه يرى أنَّ ابنته مُقبلةٌ منِّي على مصيبةٍ ، فهو يتضرَّع ، ويدعو . . . !

---

(١) « تخلطني بشملك » : الشَّمْل : الاجتماع . ومنه : جَمَعَ اللهُ شملهم ؛ أي : جَمَعَ ما تشتَّت من أمرهم .

(٢) « أخطار » : الخَطَر : ارتفاع القَدْر والمنزلة . وخَطُرَ : صار جليلاً عظيماً ذا مقام رفيع .

(٣) « أمضني » : أزعجني .

ثمَّ كانت العَتَمَة[١] فصلاَّها بي ، وأخذ بيدي ، فأدخلني إلى دارٍ قد فُرِشَت بأحسن فرْشٍ ، وبها خَدمٌ وجوارٍ في نهايةٍ من النَّظافة ؛ فما استقرَّ بي الجلوس حتَّى نهض ، وقال : أستَودعك الله ، وقدَّم الله لكما الخير ، وأحْرَزَ التَّوفيق !

واكتنفني عجائز من شملِه ، ليس فيهنَّ شابَّةٌ إلا من كانت في السِّتِّين . . . فنظرت فإذا وجوهٌ كوجوه الموتى ، وإذا أجسامٌ باليةٌ ، يتَضَامُّ بعضها إلى بعضٍ ، كأنَّها أطلال زمنٍ قد انقضَّ بين يديَّ .

فصاح ابن أيمن : وإن دَميمتك لعجوزٌ أيضاً . . .؟ ما أراك يا بن عمران إلا قتلتَ أمَّ الغلامين . . . !

قال مسلم : ثم جَلوْن[٢] ابنتَه عليَّ وقد ملأن عينيَّ هرماً ، وموتاً ، وأخْيلة شياطين ، وظلال قرودٍ ، فما كدت أستفيق لأرى زوجتي ، حتَّى أسرعْن فأرخَيْن السُّتورَ علينا ؛ فحمدت الله لذهابهنَّ ، ونظرت . . .

وصاح ابن أيمن وقد أكله الغيظ : لقد أطلْتَ علينا ، فستحْكي لنا قصَّتَك إلى الصَّباح ، قد علمناها ويلك ! فما خبر الدَّميمة الشَّوهاء[٣] ؟

قال مسلم : لم تكن الدَّميمة الشَّوهاء إلا العروس . . . .

* * *

فزاغت أعيُن الجماعة ، وأطرق ابن أيمن إطراقَةَ مَنْ وَرَد عليه ما حيَّره ، ولكنَّ الرَّجل مَضى يقول :

ولمَّا نظرتها لم أرَ إلا ما كنت حفظته عن أبي عبد الله البلخيِّ ، وقلت : هي نفسي جاءت بي إليها ، وكأنَّ كلام الشَّيخ إنَّما كان عملاً يُعمل فيَّ ، ويُدبِّرني ، ويُصرِّفني[٤] ، وما أسرع ما قامت المسكينة فأكبَّت على يديَّ ، وقالت :

« يا سيدي ! إنِّي سرٌّ من أسرار والدي ، كتمه عن النَّاس ، وأفضى به إليك ؛

---

(١) « العتمة » : صلاة العشاء .

(٢) « جلون » : أظهرن .

(٣) « الشوهاء » : القبيحة .

(٤) « يصرّفني » : يُوجِّهني .

إذ رآك أهلاً لستره عليه ، فلا تخْفِر[١] ظنَّه فيك ؛ ولو كان الَّذي يُطلب من الزَّوجة حسنَ صورتها دُون حُسْن تدبيرها ، وعفافِها ، لعظُمَت مِحنتي ، وأرجو أن يكون معي منهما أكثر ممَّا قصُرَ بي في حُسن الصُّورة ؛ وسأبلغ محبَّتَك في كلِّ ما تأمرني ؛ ولو أنك آذيتني ؛ لعَدَدْتُ الأذى منك نعمةً ، فكيف إن وَسِعَني كرمك ، وسَترك ؟! إنَّك لا تعامل الله بأفضل من أن تكون سبباً في سعادة بائسةٍ مثلي . أفلا تحرص يا سيِّدي ! على أن تكون هذا السَّبب الشَّريف . . . ؟ » .

ثمَّ إنَّها وثبتْ فجاءت بمالٍ في كيسٍ ، وقالت : يا سيِّدي ! قد أحلَّ الله لك معي ثلاث حرائر[٢] ، وما آثرته من الإماء ؛ وقد سَوَّغتُك تزويج الثَّلاث وابتياع الجواري من مال هذا الكيس ، فقد وقفتُه على شهواتك ، ولست أطلب منك إلا ستري فقط !

* * *

قال أحمد بن أيمن : فحلف لي التَّاجر : أنَّها ملكت قلبي ملكاً لا تصل إليه حسناءُ بحسنها ؛ فقلت لها : إنَّ جزاء ما قدمتِ ما تسمعينه منِّي . والله ! لأجعلنَّك حظِّي من دنيايَ فيما يُؤثِره الرَّجل من المرأة ، ولأضرِبَنَّ على نفسي الحجاب ما تنظر نفسي إلى أنثى غيرك أبداً .

ثمَّ أتممت سرورَها ، فحدَّثتها بما حفظته عن أبي عبد الله البلخيِّ ، فأيقنت ـ والله يا أحمد !ـ أنَّها نزلت منِّي في أرفع منازلها ، وجعلت تَحسُن ، وتحسُن ، كالغصن الَّذي كان مَجروداً[٣] ، ثمَّ وخَزته الخضرَة من هنا ، ومن هنا .

وعاشرتُها ، فإذا هي أضبط النِّساء ، وأحسنهنَّ تدبيراً ، وأشفقهنَّ عليَّ ، وأحبُّهنَّ لي ، وإذا راحتي ، وطاعتي أول أمرها ، وآخره ، وإذا عقلها ، وذكاؤها يُظهران لي من جمال معانيها مالا يزال يكثر ، ويكثر ، فجعل القُبح يقِلُّ ، ويقلُّ ، وزال القُبح باعتيادي رؤيته ، وبقيت المعاني على جمالها ، وصارت لي هذه الزَّوجة هي المرأة ، وفوق المرأة .

---

(١) « لا تخفر » : لا تسيء .

(٢) « حرائر » : نساء . مفردها : حُرَّة .

(٣) « مجروداً » : يابساً .

ولمَّا ولدتْ لي ، جاء ابنها رائع الصُّورة ؛ فحدَّثتني أنَّها كانت لا تزال تتمنَّى على كرم الله وقدرته أن تتزوَّج ، وتلد أجمل الأولاد ، ولم تدع ذلك من فكرها قطُّ ، وألَّف لها عقلُها صورة أجمل غلامٍ تتمثَّله ، وما برحت تتمثَّله ؛ فإذا هي أيضاً كان لها شأنٌ كشأني ، وكان فكرها عملاً يعمل في نفسها ، ويديرها ويصرِّفها .

ورزقني الله منها هذين الابنَيْن الرَّائعين لك ، فانظر ؛ أيُّ معجزتين من معجزات الإيمان . . . !

* * *